تقديم السلسلة

يزخر تراث مصر الفلسفى بصفحات هامة قدمها أعلامه عبر التاريخ الحضارى الطويل لمصرنا الغالية. ولما كان تراثنا ملكنا وليس ملكاً لأحد غيرنا، ولما كنا بالضرورة أقدر على ابرازه ونفض الغبار عنه وتقديمه للأجيال الجديدة فى مصر والعالم، فلا ينبغى أن نتوانى لحظة عن القيام بهذه المهمة القومية.

وأعتبر هذه بالفعل مهمة قومية نظراً لما درجنا عليه من إهمال واضح لهذا التراث بأشكاله المختلفة وخاصة فى مجال الدراسات الفلسفية. والحقيقة أن هذا الإهمال قد تسبب بشكل أو بآخر فى شيوع عدم الانتماء بين الأجيال الجديدة، وقد تسبب من جانب آخر فى هذه الهجمات المتتالية من قبل أعداء مصر فى كل مكان على تاريخها وإعلامها فأصبح مجالاً للنهب وللقيل والقال وأصبح كل من هدب ودب يدعى أنه صانع المنجز الحضارى المصرى. وليس ببعيد ما يدعيه اليهود هذه الأيام من أنهم صانعو الحضارة المصرية القديمة وبناة الأهرام وطاردوا الهكسوس ... إلخ!!

ولا يخفى علينا أن الدور الرائد والأهم فى الاهتمام بتراثنا الفكرى خاصة والحضارى عامة كان ولا يزال للعلماء والباحثين الغربيين. وليس

بخافٍ على أحد أن هذه الاهتمام رغم كل ما فيه من جدية وجهد علمي رصين ورائد ليس خال من الأغراض السياسية أو الأيدلوجية أو الدعائية. وفي اعتقادى أن جهدنا فى هذا المجال ينبغى أن يتجاوز ردود الأفعال إلى الأفعال، ينبغى أن يتجاوز محاولات الرد على المقولات الزائفة التى يشيعها ويروج لها الآخرون عن تراثنا وحضارتنا، إلى محاولة تقديم هذا التراث فى مختلف المجالات بروح مصرية وبجهد مصرى وبالطبع فليس أقدر على إبراز وتقديم درر ما فى تراث حضارى ما أكثر من أصحابه أنفسهم.

ولما كنت عاشقًا لمصر ولتراثها الحضارى عبر العصور، ولما كان تخصصى هو الفلسفة عامة والفلسفة القديمة على وجه الخصوص، فقد آليت على نفسى أن أقوم بجهد ما فى هذا المجال. وهو وان قل يشكل لبنة من لبنات تدعيم الانتماء إلى هذا التراث الحضارى العظيم لمصرنا الحبيبة. وهو وان تواضع يساهم فى إلقاء الضوء على مجال لازال بكراً فى اهتماماتنا القومية؛ حيث أن الاهتمام بتاريخ مصر؛ وبآثارها وبإنجازاتها فى مجالات السياسة والاقتصاد والعلوم قد بدأ منذ مطلع عصر نهضتنا الحديثة فى القرن التاسع عشر، بينما لا نزال نخطوا خطواتنا الأولى فى ميدان الاهتمام بتاريخ الفلسفة فى مصر رغم أن اسهامات المصريين فى تاريخ الفكر الفلسفى لا تقل بأى حال عن إسهامات العديد من شعوب العالم سواء فى الغرب أو فى الشرق.

والحقيقة أن المرء تتملكه الدهشة حينما يجد اهتمام الهنود واليابانيون والصينيون وغيرهم من شعوب العالم بإبراز دورهم الفلسفى عبر العصور، بينما نحن لا نزال نتصور خطأ أن إسهامنا وإسهام أجدادنا فى هذا الميدان يتضاءل لحد العدم!!

وقد آن آوان رفض هذا الشعور بالدونية والضآلة لأن الحقيقة أن تراثنا زاخر بالإنجازات الفلسفية فى مختلف العصور، لكننا أهملناه وأهملنا التركيز عليه وعلى دراسته مفضلين عليه الاهتمام بدراسة الفلسفات الغربية. ولا أدل على هذا الإهمال من النظر فى مناهج أقسام الفلسفة بالجامعات المصرية حيث لا تجد من بينها أى دراسة متخصصة لتراث مصر الفلسفى اللهم إلا عبر مواد الفلسفة الإسلامية، أو الفكر الشرقى القديم أو الفكر العربى المعاصر، والأمر فى هذه الحالة بالطبع متوقف على اهتمامات الأستاذ الذى يدرس هذه المادة أو تلك!! فربما - وهذا هو الأغلب بالفعل - لا يشير من قريب أو من بعيد لهذا التراث الفلسفى المصرى !!

وبالطبع فقد يقول القائل هنا : أين هذا التراث الفلسفى المصرى الذى تنادى بالاهتمام به ؟! ولهذا القائل أقول : أن تراث مصر الفلسفى يبدأ من «النص المنفى» فى التراث الفلسفى لمصر القديمة. ذلك النص الذى يرسم فيه مفكرو مصر لأول مرة تصورهم للإله الخالق المبدع

للوجود، وتصورهم أنه وهو يبدع الوجود أبدع معه الخير والشر ونصح بنى البشر بأن يسلكوا طريق الخير ويبتعدوا عن طريق الشر. فى هذا النص البديع يبزغ فجر الاهتمام بتفسير الوجود، ويبزغ فى نفس الوقت فجر الضمير على حد تعبير برستيد عالم المصريات الشهير. ومنذ هذا التاريخ تتواصل الأجيال فى مصر عبر العصور فى تقديم إبداعاتها الفكرية فمن بتاح حبت وايبوور وأمنموبى واخناتون فى مصر القديمة، إلى فيلون وكلمنت وأوريجين وأفلوطين فى مصر فى عصر الإسكندرية، إلى علماء وفلاسفة مصر فى العصرين المسيحى والإسلامى إلى العصر الحديث. كل جيل يقدم ما استطاعه فى ضوء العصر الذى عاشه وفى ضوء الظروف التى واكبت هذا العصر . وأستطيع أن أجرم بأنه لم يكن إنجاز المفكر المصرى فى أى عصر بأقل من انجازات غيره من مفكرى العالم فى ذات العصر.

كل ما هنالك أن علينا نحن واجب العودة إلى هذا التراث الضخم وإعادة قراءته وتحليله والكشف عن كوامنه وابرازها للأجيال الحالية والقادمة لعلهم يفخرون بها ويواصلون نفس طريق الإبداع الذى ما انقطع يومًا، ولكنه ان خبا زمنًا فالنار دائمًا تحت الرماد. والإبداع دائمًا موجود وان غفلت عنه العيون وغطت عليه توافه الأعمال ومصالح الساسة والغزاة !!

يا أبناء مصر وبُناتها فى القرن الواحد والعشرين ومع مطلع الألفية السابعة من تاريخكم الممتد العظيم: هو تراثكم الفكرى فاهتموا به وبدراسته، هو زادكم الحقيقى فتزودوا به لمجابهة تحديات الحاضر والمستقبل، فمن لم يستفد من تراثه وهو بهذا الثراء والغنى فقد ضل الطريق، ومن لم يعرف ماضيه حق المعرفة فلا حاضر له ولا مستقبل !

يا أبناء مصر وبُناتها فى هذا الزمن والزمن القادم، لقد كانت مصر دائمًا وعبر التاريخ رائدة فى كل مجالات الحياة إلا فى الفترات التى عانت فيها من الغزاة والمستعمرين، فكونوا أنتم أيضًا روادا للإبداع والتجديد فى عصركم وفى زمنكم. وهذا التجديد وذلك الإبداع لا يكون إلا بربط حاضركم بماضيكم وبالتطلع الجاد إلى المستقبل. والقفز إلى الأمام يحتاج دائمًا إلى العودة إلى الوراء. وهذه السلسلة التى نقدمها لكم فى دراسة أعلام التراث الفلسفى المصرى تشكل الجانب الأهم من الوعى بريادة الماضى، لتكون زادًا تتزود به فى التفاعل مع متطلبات الحاضر ودافعًا للإبداع والريادة فى المستقبل.

د.مصطفى النشار

القاهرة / ١٠ فبراير ٢٠٠١م

الموافق: ١٦ من ذى القعدة ١٤٢١هـ

تصدير

أنا عاشق لمصر ولتراثها الفكرى منذ فجر التاريخ الإنسانى الذى صنعه الإنسان المصرى الأول وحتى الآن. ولذلك فقد كان اهتمامى دائمًا منصب على إبراز الدور الحضارى الفكرى مصر عبر التاريخ. ولما كان تخصصى هو الفلسفة اليونانية خاصة، فقد وسعت دائرته ليكون الفلسفة القديمة عامة ليشمل مع الفلسفة اليونانية الفلسفات الشرقية سواء السابقة عليها أو المعاصرة لها أو التالية عليها.

وقد كان صعبًا فى البداية أن أتجه هذا الإتجاه نظرًا لاستشراء وانتشار المقولة التى تقول أن الفلسفة أصلها يونانى وأنه لا مجال للبحث عن أصل للفلسفة خارج بلاد اليونان القديمة. ولكنى بفضل الله والمثابرة على البحث واصلت أبحاثى فى أصول الفلسفة اليونانية وخاصة فى مصر القديمة وكانت النتائج مبهرة ظهرت فى عدة مؤلفات كان آخرها تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى.

ولم يكن فى تصورى يومًا أننى سأهتم بدراسة فلاسفة مصريين آخرين إلا فى إطار الفلسفة القديمة سواء فى إطار الفكر الشرقى القديم الذى قدمت فى إطاره «المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية» و«نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة – دراسات فى الفلسفة المصرية واليونانية»

و«الخطاب السياسى فى مصر القديمة»، و«مدرسة الإسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفة اليونانية».

أقول لم يكن فى تصورى إلا الاهتمام بفلاسفة مصر فى الزمن القديم، إلى أن طلب منى أ.د. حامد عبدالرحيم مدير مركز التراث العلمى العربى بحثًا عن على ابن رضوان الطبيب والفيلسوف المصرى القدير الذى عاش فيما بين القرنين الرابع والخامس الهجرى العاشر والحادى عشر الميلادى، فترددت فى البداية لكنه أصر على ذلك ووافقت من منطلق أنه يجب الاهتمام بكل ما هو مصرى سواء كان ذلك فى الزمن القديم أو فى كل الأزمنة . وزودنى الأصدقاء ببعض نصوص هذا المفكر الذى لم أكن أعرفه من قبل واستكملت أنا البعض الآخر من المكتبة المركزية لجامعة القاهرة. وكان ثمرة ذلك هذا البحث الذى يمثل الفصل الأول من هذا الكتاب، وهو ذات البحث الذى ألقيته فى المؤتمر الذى عقده مركز التراث العلمى بكلية العلوم – جامعة القاهرة عن هذا المفكر الطبيب . وبالطبع فقد تركز هذا البحث حول الجانب الفلسفى من فكر ابن رضوان ولما وجدت أن الطابع الغالب على فكره الفلسفى هو الطابع النقدى فقد ركزت بحثى على هذا الجانب الهام ربما لأوضح لنفسى وللباحثين فى التراث الفكرى الشرقى – الإسلامى عامة أن الاتجاه النقدى لم يغب أبدًا عن بال المفكرين الشرقيين كما يدعى ذلك

دائمًا دعاة «الغربنة» ، الذين لازالوا يرددون أن المفكر الشرقى غير قادر على الإبداع والنقد، وكل ما يمكنه أن يفعله هو المتابعة والشرح والتفسير لما يقدمه الآخرون! وهذا رأى شائع وهو رأى خطير وعنصرى يتهم العقلية الشرقية بأنها عقلية متخلفة نمطية جامدة، عقلية غير فلسفية !! والحقيقة التى أراها والتى يراها كل منصف أن العقل الإنسانى هو هو سواء كان لدى من ولد فى الجهة الغربية من العالم، أو ولد فى الجهة الشرقية منه، سواء ولد فى الشمال أو فى الجنوب!!

إن الإنسان الشرقى كالإنسان الغربى قادر على التفكير العقلى الفلسفى، والأمر ليس مجرد كلام، وإنما هو واقع فالفكر اليونانى أصله شرقى فى معظمه، والفكر الغربى الحديث لم يكن ليقوم لولا تأثره بالفكر الفلسفى والعلمى الإسلامى، كما أن تاريخ الفكر الفلسفى الشرقى والعربى زاخر بصنوف عديدة من الفكر الفلسفى النقدى . فمنذ ايبوور فى مصر القديمة تتوالى الأراء النقدية فى تراثنا الفكرى فى كل العصور. وقد بلغ هذا التيار النقدى ذروته فى العالم الإسلامى فى العصر الزاهر للحضارة الإسلامية حيث كان للمسلمين فضل نقد الفكر اليونانى وتجاوزه فى عديد من الجوانب أخص منها الجانب العلمى والمنطقى والفلسفى. وغير بعيد عن ذلك الجو النقدى الذى شاع بين مدارس الفكر الإسلامى؛ بين الفلاسفة والفقهاء، بين المدارس المشرقية والمدارس المغربية سواء فى المنطق أو فى الفلسفة، وليس ببعيد عن ذلك،

ذلك السجال الفكرى بين الفلاسفة المسلمين أنفسهم؛ بين الغزالى وسابقيه الفارابى وابن سينا من جهة، وبين الغزالى وابن رشد من جهة أخرى.

وليس ابن رضوان ببعيد عن هذه الروح السجالية الفكرية البناءة فقد كان الطابع الغالب على فكره هو هذا الطابع النقدى. ففى معظم نصوصه نلمس هذه الروح النقدية الغالبة. وليس أدل على ذلك من ذلك الحوار الفكرى العلمى الذى دار بينه وبين ابن بطلان البغدادى وقد كانت نبرة النقد بينهما حادة وعنيفة .

ولم تخلو كتاباته الأخرى من هذه النزعة النقدية كما سيتضح أمام القارئ العزيز فى تلك النصوص المختارة من رسالته فى الحيلة أو فى مقالته فى التطرق بالطب إلى السعادة.

إن على ابن رضوان مفكر من هؤلاء المفكرين الذين تجاهلهم كثيراً مؤرخو الفكر العربى الإسلامى سواء فى مجال تاريخ الفلسفة أو فى مجال تاريخ العلوم عند العرب. ولعل هذا الكتاب المتواضع عن على ابن رضوان يساهم فى رفع هذا التجاهل عن هذه الشخصية الفكرية الهامة فى تراثنا الفلسفى الإسلامى عامة، والمصرى على وجه الخصوص.

وقد قسمنا هذا الكتاب إلى قسمين؛ أولهما قدمنا فيه دراسة عامة عن على ابن رضوان، حياته وفلسفته النقدية. والثانى قدمنا فيه مختارات مَن نصوصه الفلسفية وخاصة ما يتضح فيها تلك النزعة النقدية على أساس أن اهتمامنا به تركز على حول ابراز هذه النزعة النقدية فى فلسفته.

والله أسأل أن يساهم هذا الكتاب فى إطار هذه السلسلة عن مفكرى مصر وأعلامها عبر عصور الفكر الفلسفى فى سد نقص نراه واضحًا فى مكتبتنا العربية والفلسفية، وأن يشجع على مزيد من الدراسات والبحوث حول على ابن رضوان المصرى وحول غيره من مفكرى مصر.

د.مصطفى النشار

القاهرة – مدينة نصر فى٢٤ فبراير ٢٠٠١م

الموافق: ٣٠من ذى القعدة ١٤٢١هـ